دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تعزيز مبدأ الوسطية في تدريس علوم البيئة
المصدر:	مؤتمر: دور الجامعات العربية في تعزيز مبدأ الوسطية بين الشباب العربي
الناشر:	جامعة طيبة
المؤلف الرئيسي:	الفقي، محمد عبدالقادر
المجلد/العدد:	ج3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
مكان انعقاد المؤتمر:	المدينة المنورة
الهيئة المسؤولة:	جامعة طيبة
الشهر:	مارس / ربيع الثاني
الصفحات:	1346 - 1378
رقم MD:	801277
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	تدريس علوم البيئة، الوسطية في الإسلام، الوسطية البيئية، التعليم الجامعي، الوسطية والبيئة، حماية البيئة
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/801277

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تعزيز مبدأ الوسطية في تدريس علوم البيئة

أ.د. محمد عبدالقادر الفقي
الخبير البيئي ورئيس تحرير مجلة البيئة البحرية
المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية - الكويت

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. وبعد ،،

فإن الوسطية ليست سمة من سمات الدين الإسلامي فقط يختص بها عن سائر الأديان الأخرى، بل هي منهج حياة، وأسلوب عمل يلتزم به المسلم في جميع شئون حياته وعبادته.

والوسطية في الإسلام ليست غاية يحرص المسلم على الوصول إليها، ولكنها وسيلة للتقرب بها إلى الله عز وجل، وعمارة الأرض، وإصلاح المجتمع. وهي لا تقتصر على تحديد الإطار الذي ينظم علاقة الإنسان بربه، وإنما تمتد لتشمل تحديد الأطر التي تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وبالمخلوقات التي تشاركه الحياة على كوكب الأرض، وبالجمادات أيضا، بما في ذلك الماء الذي نشربه، والهواء الذي نتنفسه، والأرض التي ندبّ عليها، والأشجار والزروع، وغير ذلك من مكونات البيئة التي تحيط بنا.

ومن أجل ذلك فإننا بحاجة إلى تبني ما يمكن أن نسميه بالوسطية البيئية، وأن نجعل من تلك الوسطية أسلوبا نرتضيه ونتفق عليه للتعامل مع البيئة وعناصرها، ونعرف الآخرين بهذا الأسلوب وبمزاياه، وأهميته لحل المشكلات البيئية المعاصرة التي استفحلت وتعاظمت وصارت غير قابلة للحل. وإن نظرة إلى ما تعاني منه البشرية في هذه الأيام من مشكلات التلوث والاحتباس الحراري وفقدان التنوع الحيوي (الأحيائي) وما تتناقله وسائل الإعلام عن حدوث ثقب في الأوزون من جراء الملوثات الصناعية، ومن تغير في المناخ بسبب ارتفاع تراكيز غازات الصوبة (ثاني أكسيد الكربون، والميثان، والكلوروفلوروكربونات وغيرها) لكفيلة بأن تجعلنا نعيد التفكير في أسلوب تعاملنا مع البيئة المحيطة، وأن نبحث لنا عن مخرج ينقذ البشرية من تلك الورطة الكبرى التي اندفعنا إليها بسبب اللاعقلانية في التعامل مع البيئة، والغرور الذي أصاب الكثيرين منا فراح يخربها بدلا من أن يعمرها، فقد تناسى معظم الناس -إلا من رحم ربي- أن هناك ربا سيسألنا عن النعيم الذي أُترِفنا فيه، وسيعاقب من تسبب في إهلاك الحرث والنسل.

ولهذا، وحتى نحدد المقصود بالوسطية البيئية، ونبين كيفية تعزيز الدراسات المتصلة بها في جامعاتنا العربية، فإننا سوف نبدأ بتعريف كل من الوسطية والبيئة، مستندين في ذلك في المقام الأول على معاجم اللغة، وعلى كتاب الله الكريم وسنة خير المرسلين (ﷺ).

١- الوسطية في اللغة والقرآن والسنة:

الوسطية: اسم مصدر صناعي مأخوذ من الوسط. و لم ترد الكلمة بهذه الصيغة المصدرية في القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو أشعار العرب، فهي من المصطلحات التي استحدثها المعاصرون[١]. ولهذا فإن البحث في دلالتها يتطلب منا التأمل في معاني الألفاظ التي تنتمي إلى الجذر اللغوي (و س ط).

جاء في المعاجم: وسط الشيء: ما بين طرفيه، والمعتدل من كل شيء. يقال: شيء وسط: بين الجيد والرديء. والوسط: ما يكتنفه أطرافه ولو من غير تساو. والوسط: العدل والخير. والأوسط: المعتدل من كل شيء. وأوسط الشيء: ما بين طرفيه[٢]. وواسطة القلادة: الجوهر الذي في وسطها، وهو أجودها[٣]. وفلان وسيط في قومه، إذا كان أوسطهم نسبا.

وقيل في صفة النبي (ﷺ): إنه كان من أوسط قومه، أي خيارهم. والعرب تصف الفاضل النسب بأنه من أوسط قومه[٤]. ووسْط بالسكون: اسم الشيء الذي ينفك عن المحيط به جوانبه، والوسَط بالتحريك: اسم الشيء الذي لا ينفك عن المحيط به جوانبه[٥].

وقد وردت في القرآن الكريم بعض الألفاظ التي تشترك مع لفظ الوسطية في الجذر اللغوي

---

(١) كان مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد أقر في إحدى دوراته "قياس صنع مصدر من كلمة بزيادة ياء مشددة وتاء، وهو المصدر الصناعي". وبناء على ذلك، شاع استعمال المصادر الصناعية في الكتابات المعاصرة. انظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، دار الأمواج للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧، الجزء الأول، صفحة ١٤.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، صفحة ١٠٣١.

(٣) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، صفحة ٣٠٠.

(٤) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، الجزء السابع، صفحة ٤٣١.

(٥) قال بعضهم: إذا كان وسط بعض ما أضيف إليه تحرك سينه، وإذا كان غير ما أضيف إليه تسكن ولا تحرك سينه. فوسط الرأس والدار يحرك لأنه بعضها، ووسط القوم لا يحرك لأنه غيرهم. انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، الجزء الثاني، صفحة ٢٥٣: ٢٥٤.

وفي الدلالة، وهي:

١- (وسطا) في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

٢- (أوسط) بمعنى المنزلة بين منزلتين[١]، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ (المائدة: ٨٩).

٣- (الوسطى)، بمعنى الفضلى[٢]، وذلك في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

٤- (أوسطهم) بمعنى: أعدلهم[٣]، أو أمثلهم وأعقلهم[٤]، أو خيرهم[٥] أو أحسنهم وأرجحهم عقلا ورأيا،أو أوسطهم سنا[٦]،وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم: ٢٨).

---

(١) قال القرطبي: "الوسط بمعنى الأعلى والخيار، وهو هنا منزلة بين منزلتين ونصفا بين طرفين. ومنه الحديث: "خير الأمور أوسطها"، وعن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت أهله قوتا فيه سعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتا فيه شدة، فنزلت: مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ (المائدة: ٨٩) وهذا يدل على أن الوسط هو ما كان بين شيئين. انظر: الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ، الجزء السادس، صفحة ٢٧٦.

(٢) قال البيضاوي في تفسيره: "والصلاة الوسطى: أي الوسطى بينها، أو الفضلى منها خصوصا". انظر: أبو الطيب العظيم أبادي، أنوار التنزيل المعروف بتفسير البيضاوي، تحقيق: عبد القادر عرفات العشا حسونة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦، الجزء الأول، صفحة ٤١٥: ٤١٦.

(٣) محمد بن محمد بن محمد الغزي، إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن، تحقيق: خليل محمد العربي، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، الجزء الأول، صفحة ٣٣٤. وعن ابن عباس في قوله: (قال أوسطهم)، قال: أعدلهم. انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، الجزء الثامن، صفحة ٢٥٣.

(٤) الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الخامس، صفحة ٢٧٣.

(٥) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر المحلى وجلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي، تفسير الجلالين، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، صفحة ٧٥٩.

(٦) أبو الفضل محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، الجزء التاسع والعشرون، صفحة ٣٢.

٥- (فوسطن) بمعنى:صرن في الوسط[١]، وذلك في قوله تعالى:﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ (العاديات:٥).

وقد جاء بيان المراد بقوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ في السنة النبوية الشريفة. فعن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ (ﷺ)، قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): (يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ. "وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢]. وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ).

وقد أورد ابن منظور في أثناء استشهاده بالآية الكريمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، قول الزجاج: "فيه قولان: قال بعضهم: (وسطا): عدلا، وقال بعضهم: خيارا. واللفظان مختلفان، والمعنى واحد؛ لأن العدل خير، والخير عدل"[٣].

وقال الطبري: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار... وأرى أن الله - تعالى ذكره - إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسّطهم في

(١) قال الواحدي: وسطن: توسطن به بالمكان الذي هي به جمعا من الناس أغارت عليهم، يريد صارت في وسط قوم من العدو تغير عليهم. انظر: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المعروف بتفسير الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم/ الدار الشامية، دمشق/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، الجزء الثاني، صفحة ١٢٢٥. وقال الإمام الشوكاني: (فوسطن به جمعا) أي: توسطن بذلك الوقت، أو توسطن ملتبسات بالنقع جمعا من جموع الأعداء صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء. انظر: الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مرجع سابق، الجزء الخامس، صفحة ٤٨٣.

(٢) قال مقاتل في سبب نزول هذه الآية: "وذلك أن اليهود، منهم مرحب وربيعة ورافع، قالوا لمعاذ: ما ترك محمد قبلتنا إلا حسدا فإن قبلتنا قبلة الأنبياء، ولقد علم أنا عدل بين الناس فأنزل الله: ژ ڤ ڤ ڤ ڤژ يعني: عدلا. وقد ثبت في حديث أبي سعيد الخدري هذا التفسير مرفوعا دون السبب". انظر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، العجاب في بيان الأسباب، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، صفحة ٣٨٩: ٣٩٠.

(٣) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، مرجع سابق، الجزء السابع، صفحة ٤٣١.

الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها[١].

وقال ابن كثير: "الوسط هاهنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبا ودارا، أي خيرها"[٢].

وجاء في تفسير البغوي: "قال الكلبي: يعني: أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين"[٣].

وقال البيضاوي: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: "خيارا أو عدولا مزكين بالعلم والعمل، وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط كالجود بين الإسراف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها مستويا فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها، واستدل به على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت به عدالتهم"[٤].

وقال القرطبي: "وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا، أي: جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. والوسط: العدل. وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها"[٥].

ومن العرض اللغوي السابق، ومن تأمُّل ما أوردناه من أقوال المفسرين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، يمكن القول بأن الوسطية تدل على: الاعتدال، والعدل، والخيرية،

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، الجزء الثاني، صفحة ٦.

(٢) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ، الجزء الأول، صفحة ١٩١.

(٣) أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، معالم التنزيل (المعروف بتفسير البغوي)، تحقيق: خالد العك ومروان صوار، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ م، الجزء الأول، صفحة ١٢٢.

(٤) أبو الطيب العظيم أبادي، أنوار التنزيل المعروف بتفسير البيضاوي، مرجع سابق، الجزء الأول، صفحة ٤١٥: ٤١٦.

(٥) الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، الجزء الثاني، صفحة ١٥٣.

والأفضلية.

٢- البيئة في اللغة والعلم:

إذا جردنا كلمة (البيئة) من حروف الزيادة، فسوف يتبين لنا أن الأصل اللغوي لهذه الكلمة هو الجذر: (ب و أ) الذي أُخِذ من الفعل الماضي (باء). قال ابن منظور: "باء إلى الشيء يبوء بوءًا، أي: رجع... و(تبوأ): نزل وأقام. تقول: (تبوأ فلان بيتًا) أي: اتخذ منْزلًا... وفي القرآن الكريم: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ (يونس: ٨٧)، أي: اتخذا. والاسم: البيئة والمباءة، بمعنى المنزل. يقال: (إنه لحسن البيئة) أي هيئة استقصاء مكان النُّزول وموضعه...

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ (الحشر: ٩)، أي الذين سكنوا المدينة من الأنصار، واستقرت قلوبهم على الإيمان بالله ورسوله. قال ابن منظور: "جعل الإيمان محلًا لهم على المثل. وقد يكون أراد: وتبوءوا مكان الإيمان وبلد الإيمان. وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ (العنكبوت: ٥٨): يقال: بوّأته منزلا، وأثويته منزلا ثواء: أنزلته. وبوأته منزلا، أي: جعلته ذا منْزل. وفي الحديث الشريف الذي رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار). وقوله: (فليتبوّأ مقعده) معناه: لينزل منزله من النار.

والباءة: النكاح، وسمي كذلك لأن الرجل يتبوأ من أهله، أي: يستمكن من أهله، كما يتبوأ من داره. وفي حديث النبي ﷺ (الذي رواه الشيخان): (من استطاع منكم الباءة فليتزوج)، أراد بالباءة: النكاح والتزويج.

والأصل في الباءة: المنزل، ثم قيل لعقد التزويج باءة، لأن من تزوج امرأة بوأها منزلًا. وباء بإثمه وبذنبه: احتمله وصار المذنب مأوى الذنب. وفي تأويل قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ (المائدة: ٢٩)، قال ثعلب: معناه: إن عزمت قتلي كان الإثم بك لا بي. و(يستباء)، أي: تتخذ امرأته أهلًا...

والمباءة: معطن القوم للإبل حيث تناخ. ومباءة الغنم: منزلها الذي تأوي إليه. والمباءة من الرحم: المكان الذي يكون فيه الجنين"[1].

---

(١) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الأول، صفحة ٣٨.

ومن هذا الاستعراض اللغوي يتضح لنا أن الجذر (ب و أ) ومشتقاته، بما في ذلك لفظة (البيئة)، يعنيان في الأصل: التوجه إلى شيء معين وقصده، كأن تقصد شيئًا تعرفه أي ترجع إليه. ومن هذا الأصل جاءت كلمة (البيئة) لتدل على (النزول والحلول في المكان)، ثم أطلقت الكلمة مجازًا على المكان الذي يتخذه الإنسان (مستقرًا لنزوله وحلوله)، أي على: المنزل، والموطن، والموضع الذي يرجع إليه الإنسان فيتخذ فيه منزله وعيشه، ثم أصبحت دلالة هذا المجاز هي المعنى المتعارف عليه للفظة (البيئة) عند الأقدمين.

وقد أخذت لفظة البيئة (مع مرور الأيام) دلالة أخرى مجازية، فأصبحت تدل أيضا على: أولئك البشر الذين يسكنون فيها أو يقيمون. وصارت تعني: جميع المخلوقات والموجودات التي تحل معنا، وتستوطن المواضع التي نعيش فيها، من الحيوانات، والنباتات، والأشجار، والمياه، والهواء، والصخور.

وتعرف (البيئة) في المراجع العلمية بأنها: "الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من ظواهر طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثّر فيها"[١]. أو هي "مجموعة النظم الطبيعية والاجتماعية التي تعيش فيها الكائنات الحية، والتي تستمد منها حاجاتها، وتؤدّي فيها أنشطتها"[٢].

وتعرّف البيئة أيضًا بأنها: "الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر"[٣].

أما اصطلاح علم البيئة (أو الإيكولوجيا) Ecology فيعرف بأنه: "العلم الذي يهتم بدراسة الكائن الحي في منزله وعلاقته بمجموعة عوامل حية (بيولوجية) وغير حية (كيميائية، وفيزيائية) ينتج منها علاقات قد تكون إيجابية أو سلبية أو كلاهما معًا"[٤].

كما يعرف بأنه: "العلم الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الإنسان والنبات والحيوان من

---

(١) محمد عبد القادر الفقي، البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث: رؤية إسلامية، صفحة ١٠.

(٢) د. إحسان على محاسنة، البيئة والصحة العامة، دار الشروق، عمان، الأردن، ١٩٩٢ م، صفحة ١٧: ١٨.

(٣) د. رشيد الحمد ود. محمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩ م، صفحة ٢٦.

(٤) د. إحسان على محاسنة، البيئة والصحة العامة، مرجع سابق، صفحة ١٧.

ناحية، وبينهم وبين البيئة المحيطة من ناحية أخرى"[١].

ويعد هذا العلم أحد أقسام العلوم الأحيائية الرئيسية، وهو يعتمد على مجموعة من العلوم تشمل: علم النبات، وعلم الحيوان، وعلم التربة، والجغرافيا الطبيعية بفروعها، ثم الكيمياء الحيوية، والميكروبيولوجية، والرياضيات العالية، وكذلك علم الاجتماع، والجغرافيا البشرية، وعلم النفس، وعلم الاقتصاد[٢].

٣- لمحة تاريخية:

إن الدراسات البيئية ليست بالجديدة على عصرنا وجامعاتنا. فمنذ أقدم العصور أسهمت الخبرات المتوارثة في التعامل مع مكونات البيئة الطبيعية من حيوانات ونباتات وأرضين وأمواه وأهوية ومعادن وطاقة في نشأة علم البيئة. وقد عرفت الحضارات الأولى وما تلاها الكثير من أسرار البيئات التي قامت فيها تلك الحضارات، فاستأنست بعض الحيوانات البرية، ودجنت بعض الطيور، واصطفت بعض النباتات لزراعتها، وروضت بعض السيول، وأقامت بعض السدود على مجاري الوديان والأنهار. ونحن نجد في كتابات طاليس Thales (٦٤٠ - ٥٤٦ ق. م) وأناسكماندر Anaximander (٦١١ -٥٤٧ ق. م) وأرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق. م) عرضا لعدد من الظواهر البيئية والطبيعية مثل علاقة الأحياء بالماء، وتباين البيئات الطبيعية وغيرها. كما أننا نجد في أعمال مؤلفي الرومان مثل استرابون Strabon (٦٤ ق. م – ٢٠ م) وبطليموس الكلودى Claudius Ptolemaeus (٧٥م – ١٥٣ م) وبليني Pliny الأكبر (٢٣ – ٧٩ م) إشارات إلى بعض الظواهر البيئية والبشرية والعلاقات بينها، والدورة المائية، وغيرها.

وقد أسهم علماء المسلمين في الدراسات البيئية، على نحو ما نرى في كتابات هشام بن محمد الكلبي (توفي عام ٨٢٠ م) عن الأنهار، والمسعودي الذي قام بتحليل العديد من العلاقات بين الخصائص البشرية والملامح البيئية في العديد من أقاليم العالم، والزمخشري صاحب كتاب (الجبال والأماكن والمياه)، والقزويني الذي يعدّ أول من كتب عن الكائنات الحية في البيئات المختلفة بشيء

---

(١) د. محمد خميس الزوكة، البيئة ومحاور تدهورها وآثارها على صحة الإنسان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، صفحة ١٨.

(٢) د. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيجابي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م، صفحة ١٧.

من التفصيل، وابن خلدون الذي تناول دور المؤثرات البيئية في حياة البشر، ومحمد بن أحمد التميمي صاحب (مادة البقاء) الذي يعدّ أول كتاب عن (تلوث الهواء).

وقد بدأ الاهتمام في الغرب بعلم البيئة بشكل متواضع خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. ففي عام ١٨٦٦م قام عالم الأحياء الألماني إرنست هايكل Ernst Haeckel (١٨٣٤- ١٩١٩م) بوضع مصطلح علم البيئة (الإيكولوجيا). ولم يستخدم هذا المصطلح على نطاق واسع إلا خلال القرن العشرين عندما تعددت المشكلات الناتجة عن تزايد ضغوط البشر على موارد البيئة وإمكاناتها، وما تبع ذلك من حدوث تغيرات عميقة في البيئة تمخض عنها بعض الخلل في التوازن البيئي. ففي المائة سنة الأخيرة وخاصّة في نصفها الثّاني شهد الاهتمام بالبيئة تطوّرا نوعيّا، إذ بدأ علم البيئة يستقلّ بنفسه عمّا كان عليه من سريان في النّسيج الثّقافي العامّ ليشكّل فرعا معرفيّا خاصّا له قوامه وأصوله وقواعده وقضاياه مثل سائر فروع العلم الأخرى[1].

٤- ما هي الوسطية البيئية؟:

إن الوسطية البيئية التي ندعو إلى تبنيها في تعاملنا مع البيئة، ومراعاتها في الدراسات البيئية بجامعاتنا العربية والإسلامية هي فرع من "الوسطية العامة" التي يتسم بها الدين الإسلامي، والتي وضع نواميسها الحق عز وجل، وطبقها عمليا رسول الله (ﷺ)، وسار على نهجه في ذلك صحابته (رضوان الله عليهم) والتابعون لهم وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

وإذا كانت الوسطية العامة في الإسلام تقوم على الاعتدال والخيرية انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) وقوله عز وجل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وانطلاقا من المعنى اللغوي لكلمة الوسط، فإن الوسطية البيئية تقوم أيضا على الاعتدال في التعامل مع البيئة، والحرص على تحقيق الخيرية من هذا التعامل بلا ضرر ولا ضرار، وذلك بأن نأخذ من مواد الأرض ما لا يتجاوز حد الكفاية، غير معتدين في ذلك أو مسرفين، امتثالا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ

---

(١) د. محمد عبد القادر الفقي، علم البيئة: تاريخ وآفاق، مجلة الوطنية (التي تصدر عن شركة البترول الوطنية الكويتية)، الكويت، عدد أغسطس ٢٠١٠ م، صفحة ١٤: ١٦.

يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٧). وعلى هذا يمكن تعريف (الوسطية البيئية) بأنها "منهج للتعامل مع البيئة وما فيها من أحياء وموارد وجمادات، يراعى في تطبيقه أن تتم الاستفادة من ثروات البيئة دون إفساد لها أو مكوناتها أو أنظمتها المختلفة، وأن يكون ذلك في حدود الحاجة التي لا تصل إلى رتبة الإسراف أو التقتير، مع مراعاة حاجة الآخرين، بما في ذلك الأحياء الأخرى التي تعيش معنا على الكوكب الأرضي، والأجيال الأخرى من البشر التي سوف ترث الأرض من بعدنا، وبما يضمن تحقيق الخير لنا ولغيرنا من المخلوقات، وبدون تمييز جنس من البشر على آخر، أو مجموعة من الناس على أخرى".

٥- المبادئ التي تقوم عليها الوسطية البيئية:

إن المتأمل في واقع تعامل الأمم الأخرى مع البيئة وثرواتها ومواردها يلاحظ ما يلي:

١- إن بعض هذه الأمم ينظر إلى البيئة وكأنها منحة خاصة به، ولذلك فإنه يتعامل معها من منطلق الأنانية البحتة التي تبيح له:

- أن يرى نفسه المخلوق الوحيد المستحق للحصول على الموارد التي تحفل بها البيئة من دون سائر المخلوقات الأخرى.

- أن يتعامل مع ثروات البيئة وكأنها ملكية خاصة به، يحق له أن ينتفع بها وحده ويحرم منها الآخرين، أو يقوم ببيعها لهم بالثمن الذي يحدده أو يرتضيه.

- أن يجيش جيوشه للاستيلاء على الموارد والثروات البيئية الموجودة لدى الأمم الأخرى ويستغلها لصالحه.

- ألا يراعي حقوق الأجيال الأخرى في موارد البيئة وثرواتها، فتراه يسرف في استهلاك تلك الموارد، مسببا نضوب بعضها أو عدم إتاحة الفرصة لها لتتجدد.

- أن يجعل مصلحته الشخصية فوق المبادئ التي لا بد من مراعاتها لاستمرار النظم البيئية في العمل، فلا يراعي حقوق الاستخلاف، ولا يعمل على عمارة البيئة وإحياء مواتها وإصلاح ما أفسده منها.

- أن يكون تحقيق أكبر قدر من الربحية من موارد البيئة أو من عناصرها وأنظمتها هو أكبر همّه، بغض النظر عن آثار ذلك على الآخرين أو على البيئة نفسها أو على أنظمتها.

٢- إن بعض الأمم الأخرى يضفي على البيئة وبعض عناصرها صفة القدسية، كالهندوس الذين يؤمنون بأن الله قد اتحد بجميع مكونات البيئة وامتزج بها. وهذا الصنف من البشر يتعامل مع البيئة ومواردها بحساسية شديدة، فتراه مثلا:

- يهدر بعض الثروات الحيوانية الموجودة في بيئته، كالأبقار، اعتقادا منه بقدسيتها، وبحلول روح الإله فيها.

- يترك بعض الأحياء الضارة (مثل الفئران والثعابين) حتى تزدهر وتتكاثر، دون أن يتدخل لكي يحد من زيادة أعدادها، انطلاقا من نظرة التقديس التي يضفيها عليها.

- يحرّم على نفسه وغيره بعض أنواع الطيبات من الرزق (كاللحوم الحيوانية) لا لشيء إلا لعقيدته الفاسدة في حلول الروح الإلهية في أجساد الحيوانات.

- يعتقد بقدسية بعض الموارد المائية (مثل نهر الجانج) فيلقى فيها جثث الموتى من البشر ليطهرها النهر بحسب اعتقاده، متجاهلا أن مثل هذا العمل يلوث مياه النهر.

٣- من ناحية أخرى، فإن النظريات التي تحكم العلاقة بين الإنسان وبيئته تتفاوت فيما بينها بشكل كبير، فنظرية الحتمية الحضارية -على سبيل المثال- تجعل الإنسان سيد البيئة يغيرها كما يريد، وهو الذي يؤثر في تشكيل مكونات بيئته. أما نظرية الحتمية البيئية فتعطي البيئة التأثير الأكبر على الكائنات الحية ومنها الإنسان.

٤- إن الدراسات البيئية التي تقوم على الفكر الرأسمالي تضحي بالبيئة في سبيل المنفعة أو الربحية. وفي المقابل فإن البيئة في المجتمعات التي يسود فيها الفكر الشمولي تضحي بالإنسان وبالبيئة أيضا في سبيل استمرارية هذا الفكر.

وعلى النقيض من نظرة غير المسلمين إلى البيئة فإن نظرة الإسلام إليها تجيء وسطا، فهو (أي الإسلام) يقرر أن:

١- البيئة وموارها وثرواتها ليست ملكا خاصا لأحد، بل هي ملك لله، وهو مستخلف فيها.

٢- للإنسان أن يتمتع بما في الأرض من ثروات وموارد، دون إفساد أو استنزاف أو إسراف، لأنه سوف يحاسب على ذلك بعد البعث.

٣- ثروات البيئة وموارها حق لجميع من عليها وما عليها من الأحياء، بما في ذلك المعجمات من الحيوان، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (هود: ٦)، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ (الحجر: ٢٠)، وقال عز وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ (النحل: ٦٨ -٦٩) وقال تعالى أيضا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا

وَإِيَّاكُمْ ﴾ (العنكبوت: ٦٠).

٤- للفقراء والمساكين حق معلوم فيما تخرجه الأرض من ثمار وبقول وحبوب وفاكهة، وعلى الغني أن يخرج زكاة ماله لهؤلاء الفقراء والمساكين، بما في ذلك زكاة زروعه يوم حصادها. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ ﴾ (المعارج: ٢٤- ٢٥)، وقال عز وجل: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ (الأنعام: ١٤١)، وبذلك لا يحرم أحد من موراد البيئة الطبيعية. كما أن زكاة الركاز (من معادن ونفط وكبريت وأية كنوز أخرى في باطن الأرض) توزع في مصارفها الشرعية بنصابها المحدد (وهو الخمس).

٥- إن التوازن البيئي سنة كونية أوجدها الله عز وجل لاستمرار الحياة على الأرض، قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر: ١٩). وهذا التوازن دقيق جدا، إذ إن كل شيء في البيئة خلقه الله بقدر. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩)، وقال عز وجل: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢٠)، وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨). ومن المعروف أن "أي خلل في هذا القدر الذي خلقت به الأشياء يمكن أن يسفر عن تولد مشكلة بيئية، مثل مشكلة اختلال التوازن البيئي أو مشكلة التلوث الذي يحدث إذا لحق الخلل الجانب الكيفي للشيء، أو يؤدي إلى نضوب الشيء إذا لحق الخلل الجانب الكمي له"[1].

٦- إن الله عز وجل خلق الأرض وقدر فيها أقواتها بحيث تكفي من فيها وما فيها من البشر والأحياء الأخرى، وهو يبارك في هذه الأقوات للمتقين، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٩٧). وعلى النقيض من آراء (مالتوس) وأتباعه من أن الزيادة السكانية لا يقابلها زيادة في إنتاجية الأرض، فإن الله يؤكد لنا في كتابه الكريم على أنه -سبحانه وتعالى- قد تكفّل بالرزق لكل مخلوق، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٣١)، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (المنافقون: ٧)، وقال عز وجل: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ

---

(١) د. حسين مصطفى غانم، الإسلام وحماية البيئة من التلوث، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ م، صفحة ٢٥.

مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١). و"خزائن الشيء: أرصدته"[١]، والفعل المضارع (ننزله) يفيد الاستمرارية، أي أن أرصدة الموارد البيئية في الأرض لا تنفد عند الله خلافا لما يقوله المتبيئون!.

٧- إن الكوارث البيئية من مجاعات وقحط وزلازل وغيرها هي عقوبات ربانية للمفسدين في الأرض، تستهدف إعادة البشر إلى سواء السبيل وتخويفهم من عاقبة الكفر أو الشرك أو الظلم، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: ٥٩).

٨- على النقيض مما يقرره المتبيئون المعاصرون من أن الأرض هي البيئة الأم للإنسان: فيها ينشأ، وفيها يموت، فإن القرآن الكريم يخبرنا أن وجود الإنسان في هذه البيئة محدود بزمن معين، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦)، ويقرر أن هناك بعثا بعد الموت، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ (الإسراء: ٤٩-٥١)، كما يخبرنا أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت: ٦٤)، وأن بيئة الجنة هي البيئة المثالية لخلوها من أشكل التلوث كافة، قال تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ (الغاشية: ١١)، وقال عز وجل: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ (محمد: ١٥)، فأهل الجنة لا يتبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون. ويؤكد ذلك الحديث النبوي الذي رواه جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، إذ قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا، وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ). قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: (جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ..)[٢].

٩- في حين تقرر الفلسفات المادية أن الإنسان هو سيد البيئة، فإن القرآن يخبرنا أن الكون بكل ما فيه من مجرات ونجوم وكواكب وجمادات ونباتات وحيوانات مسخر لخدمة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣). وفرق كبير بين السيادة على البيئة وبين تسخير ما فيها، فالسيادة تعني أن للإنسان أن يتصرف فيما هو سيد عليه

---

(١) المرجع السابق، صفحة ٢٧.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا، الحديث رقم ٧٣٣١.

كما يشاء بلا رقابة ولا ضوابط، أما التسخير فيعني أن هناك مهيمنا أعلى هو الذي سخر هذه المخلوقات للإنسان. وهذا المهيمن هو الله.

١٠- تتبنى النظرة الإسلامية للعلاقة بين الإنسان وبيئته منهجا وسطا يقوم على الاعتراف بالتأثير المتبادل للإنسان في البيئة، والبيئة في الإنسان، وأن ذلك يتم وفق سنن كونية سنها الخالق عز وجل لضمان ديمومة الحياة على الأرض لأمد محدود حتى يأتي أمر الله.

١١- لا يمانع الإسلام من استثمار البيئة والاستفادة من مكوناتها لتحقيق أرباح ولكن ذلك يكون بشروط وضوابط خاصة تكفل استدامة الموارد البيئية دون تضحية بالبيئة أو الإنسان نفسه.

٦- نظرة تقويمية لواقع الدراسات البيئية في العالم والجامعات العربية والإسلامية:

في معظم جامعات العالم المعاصر، فإن علوم البيئة -شأنها في ذلك شأن العلوم الطبيعية- لا تنطلق من منظور ديني، وهي لذلك تأتي مصطبغة بصبغة الفلسفة السائدة في المجتمعات الغربية أو الشرقية، التي تعزز مبدأ استنزاف الموارد من أجل تحقيق أكبر قدر من الربح، أو التي تعلي من قدر البيئة وبعض عناصرها وتضفي عليها قدسية خاصة تحدّ من الاستفادة من هذه الموارد. وتدرس علوم البيئة في معظم جامعات العالم انطلاقًا مما يلي:

١- الدراسات البيئية الحقلية القائمة على تطبيق منهج التجربة والمشاهدة والاستنتاج.

٢- النظريات العلمية القائمة على محاولة تحليل الظواهر الطبيعية وتفسيرها بمعزل عن الدين أو الميثولوجيا (كما هي الحال في نظرية التطور ونظرية جايا وغيرهما).

٣- الموروث البيئي المستمد من المعارف والكتابات السابقة، بعد إخضاعه للغربلة والفحص والنقد والتطوير.

٤- السياسات والتوجهات البيئية الوطنية والإقليمية، التي تتأثر بالثقافة السائدة في كل دولة أو إقليم، وبالأوضاع الاقتصادية للبلدان المختلفة.

٥- توجهات برنامج الأمم المتحدة للبيئة والبرامج المشابهة المعنية بحماية البيئة أو بدراسة ظواهرها وأنظمتها وعناصرها المختلفة.

ويكاد يكون هذا النهج هو المتبع في جامعاتنا العربية والإسلامية (مع بعض التفاوت وفقا للتوجهات الوطنية في كل دولة)، حيث تدرس العلوم البيئية في كليات العلوم والحقوق وبعض فروع الهندسة والطب التابعة لتلك الجامعات.

ويلاحظ أن هذا النهج ليس وليد المجتمعات العربية والإسلامية، وإنما هو نسخة كربونية (تقريبا) من النهج الغربي المتبع في الدراسات البيئية، ويعود ذلك إلى عدة أسباب، لعل أهمها ما لاحظه ابن خلدون من افتتان المغلوب بتقليد الغالب، فضلا عن أن أغلبية الباحثين في الدراسات البيئية قد تتلمذوا على النهج الغربي، بالإضافة إلى أن معظم الدراسات البيئية المعاصرة وكذلك المراجع العلمية المعتمدة في هذه الدراسات هي وليدة المجتمعات الغربية.

كما يلاحظ أيضًا أن الدراسات البيئية في جامعاتنا العربية والإسلامية تدور في نفس الفلك الذي تدور فيه الدراسات المماثلة في الجامعات الغربية، بكل ما فيها من مزايا أو مثالب، فهي على سبيل المثال:

١- لا تربط بين هذه العلوم والدين، وتعدّ مثل هذا الربط خارجا عن المنهج العلمي.

٢- تردّ كل ما يحدث في البيئة من ظواهر إلى الطبيعة أو إلى التدخل البشري، دون اعتراف أو إقرار بالقدرة الإلهية في إيجاد هذه الظواهر أو خرقها.

٣- في أغلب البلدان، يتعامل الأكاديميون مع النظريات العلمية وكأنها حقائق ثابتة إلى أن يتبين عكس ذلك.

٤- تدخل الاعتبارات الاقتصادية في الدراسات البيئية، حيث تقوم الشركات الصناعية الكبرى بتمويل الدراسات التي تخدم مصالحها الاقتصادية أو التي تروّج لمنتجاتها (على غرار ما يحدث في الترويج للمنتجات التي يسمونها بالصديقة للبيئة، أو في التشهير بسمعة بعض المواد التي لم يثبت يقينا أنها مضرة بالبيئة).

ولا يخفى ما في هذا النهج من تطرف وتجاوز، ومن كونه يتنافى مع شريعة الإسلام التي لا تفصل بين الدين والدنيا، وتقر بهيمنة الخالق على مخلوقاته وتصريفه لشؤونها وتحكمه في مصائرها وأرزاقها.

ولذلك فإن الدراسات البيئية في جامعاتنا العربية والإسلامية يجب أن تغير نهجها، بحيث تكون متوائمة مع النظرة الإسلامية للبيئة، والتي تقر بأن للبيئة خالقا أحكم صنعها، وأوجد فيها قوانين تضبط أنظمتها من حيث الكمّ والكيف والمصير، وجعل الإنسان مستخلفا في بيئة الأرض، ومن واجبات الاستخلاف أن يعمر الإنسان هذه البيئة ولا يفسد فيها، وفي الوقت نفسه يأخذ منها ما يكفيه من غذاء وكساء وموارد للطاقة، بلا إفراط ولا تفريط، وفقا لمنهج الوسطية البيئية.

٧- مزايا معالجة الموضوعات البيئية من خلال منهج الوسطية الإسلامية:

إن معالجة الموضوعات البيئية في جامعاتنا وفق منهج الوسطية الإسلامية سوف تثمر العديد

من الفوائد التي تعود بالإيجاب على البشر أنفسهم وعلى البيئة وعناصرها أيضا. ويمكن أن نذكر من هذه الفوائد -على سبيل المثال لا الحصر- ما يلي:

١- بيان الموقف الحقيقي والمعتدل للإسلام تجاه المحافظة على البيئة وحمايتها وصون ما فيها من أحياء وموارد وثروات.

٢- تصحيح المسار الخاطئ الذي تسير فيه الدراسات البيئية في جامعاتنا، ذلك المسار الذي يفصل بين علوم البيئة وبين علوم الشريعة، بحجة عدم الالتقاء بينهما، أو بغير ذلك من الحجج.

٣- إن منهج الوسطية البيئية كفيل بمعالجة الأخطاء البيئية التي عجزت القوانين الوطنية والاتفاقيات والمعاهدات الدولية عن معالجتها، لأن المنهج الوسطي الإسلامي يجعل من مراقبة العبد لربه في سلوكياته البيئية رادعا له يحول بينه وبين ما يمكن أن نسميه بالجور البيئي أو بالإساءات أو الاضطرابات البيئية.

٤- يسهم تطبيق الوسطية البيئية الإسلامية في خفض التكاليف التي تنفقها الدول الإسلامية على حماية البيئة، لأنه يجعل من رعاية البيئة وصونها والمحافظة عليها مقصدا من مقاصد الشريعة التي تستهدف المحافظة على النفس والمال والنسل والعقل، إلى جانب حفظ الدين. وهذا بدوره يقلل من حجم مشكلات التلوث واستنزاف الموارد والتوعية البيئية، ويحد من الانجراف وراء الاتجاهات الاقتصادية التي تروّج لسلع معينة باعتبار أنها غير ملوثة للبيئة (ثم يتبين بعد ذلك عدم صدق ذلك)، أو التي تحظر استخدام مواد معينة بحجة أنها تضر بالبيئة من غير أن يتم التثبت من صحة مثل هذه المزاعم.

٥- إثراء الفكر الإسلامي، بل والعالمي أيضا، بدراسات بيئية جديدة تتسم بالمصداقية (لارتباطها بمصادر موثوقة: هي كتاب الله وسنة نبيه ﷺ)، والجدية والبعد عن الأهواء (لعدم خضوعها لإغراءات الشركات الصناعية الممولة للأبحاث البيئية التي تخدم مصالحها الاقتصادية).

٦- إن مثل هذه الدراسات وسيلة مناسبة لتعريف الآخرين بمنهج الوسطية البيئية الإسلامي.

٨- كيفية تعزيز مبدأ الوسطية في الدراسات البيئية:

يتطلب تعزيز مبدأ الوسطية في الدراسات البيئية في جامعاتنا العربية والإسلامية تكوين فريق بحثي من العلماء والباحثين المؤمنين بمنهج الوسطية وبأهمية أسلمة المناهج الدراسية الجامعية وفقا لمبدأ الوسطية، ولا مانع من الاستعانة بعلماء متخصصين في علوم الشريعة والدراسات الإسلامية

لذلك الغرض. ويتطلب ذلك العمل تنقيح المناهج المطبقة حاليا وصبغتها بالصبغة الإسلامية التي تؤصل لفكرة الوسطية البيئية التي أشرنا إليها.

ومن الأهمية بمكان عند تنقيح تلك المناهج التأكيد على أن القرآن الكريم والسنة النبوية يخطان لنا مذهبا وسطا في التعامل مع البيئة وأنظمتها ومكوناتها، وهذا المذهب يقوم على الاعتدال في كل شيء: في الإنتاج وفي الاستهلاك، كما يقوم على صون الموارد الطبيعية والمحافظة على التنوع الأحيائي، وهو يستند في ذلك إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والقواعد الفقهية التي استنبطها أعلام الفقه الإسلامي وممارسات سلفنا الصالح. والشواهد التي يمكن الرجوع إليها في هذا المضمار كثيرة ومتعددة، نذكر منها -كنماذج فقط- قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)، وقوله عز وجل: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) الأعراف: ٥٦، والحديث الذي رواه أبو سعيد سعد بن سنان الخدري (ﷺ): أن رسول الله ﷺ قال: (لا ضرر ولا ضرار)[1]، والحديث الذي رواه عبد الله بن مغفل أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لولا أَنَّ الْكِلابَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا، فَاقْتُلُوا كُلَّ أَسْوَدٍ بَهِيمٍ).

كما أنه من الضروري عند تنقيح تلك المناهج أن نقدّم أمثلة لتصور غير المسلمين لبعض الجوانب البيئية والتصور الإسلامي لها، فضلا عن توضيح الكيفية التي يعالج بها الإسلام قضايا البيئة المعاصرة وفقا للمنظور الوسطي، وكذلك توضيح الدور الذي يمكن أن تسهم به الوسطية الإسلامية في حل المشكلات البيئية الكبرى التي تعاني منها البيئة حاليا، مثل مشكلة التلوث، واستنزاف الموارد، وانقراض الأحياء، وفقدان التنوع الحيوي، والاحتباس الحراري، وغير ذلك.

وسوف نعرض هنا بعض الأمثلة على ذلك:

أولاً : في العلاقة بين الإنسان والبيئة:

تشير المراجع البيئية الغربية إلى أن هناك ثلاث نظريات تتعلق بمدى ارتباط الإنسان ببيئته وتأثير كل منهما في الآخر. وهذه النظريات هي:

(أ) نظرية الحتمية الحضارية: يتلخص رأي مؤيدي هذه النظرية في أن الإنسان هو الذي يؤثر

---

(١) حديث حسن، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندا. ورواه مالك في الموطأ مرسلا: عن عمرو بن يحيى، عن أبيه عن النبي ﷺ. فأسقط أبا سعيد. وله طرق يقوي بعضها بعضا.

في تشكيل مكونات بيئته، فهو سيدها يغيرها كما يريد. ويدلل أصحاب تلك النظرية على صحة ذلك بما نراه في البيئات التي تقدمت وتغيرت بفضل التطور العلمي والتقني (كما في دول الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة الأمريكية واليابان مثلا)، ويقول أصحاب تلك النظرية إنه لولا الإنسان وعلمه لظلت تلك البيئات كما كانت منذ آلاف السنين غابات مظلمة شديدة الرطوبة. ففي هذه البلدان، وفي غيرها أيضا نجح الإنسان في تشييد أجمل المدن والحدائق في وسط الصحراء. ويرى أصحاب هذه النظرية ومؤيدوها وأنصارها أن الإبداع الإنساني والعمل البشري هما العاملان الرئيسيان اللذان يؤثران في شكل البيئة. كما يرون أن الإنسان قد تغلّب على قسوة الطبيعة وعمل على تسخير مكونات البيئة لتحقيق أهدافه ورغباته، فالإنسان (في مفهوم أصحاب هذه النظرية، وعلى حد تعبيرهم) هو "منشئ البيئة التي يعيش فيها".

وعند التأمل في هذه النظرية -انطلاقا من تعاليم ديننا الإسلامي- فإننا سوف نجد أنها رغم اعترافها بدور الإنسان في تحسين بيئته، فإنها تنكر دور القدرة الإلهية في إحداث التغيرات البيئية، بما في ذلك دورها في تمكين الإنسان من عمارة الأرض. وإزاء ذلك، يجب على الأكاديمي المسلم أن يقوم بتوضيح مثل هذا الخلل الكائن في تلك النظرية عند تناوله لها.

(ب) نظرية الحتمية البيئية: كانت هذه النظرية هي السائدة في الأوساط العلمية حتى وقت قريب. وهي تؤكد على أن سلوك الإنسان خاضع للظروف البيئية التي يعيش فيها، وأن عناصر البيئة الطبيعية هي التي تتحكم في السلوك البشري، وما على الإنسان إلا التكيف مع بيئته. وقد أعطى أصحاب هذه النظرية للبيئة التأثير الأكبر على الكائنات الحية ومنها الإنسان. وهذا (بكل) Buckle أحد المؤمنين بهذه النظرية يقول بتبجح في كتابه: (تاريخ المدنية في إنجلترا): "حيثما توجهنا فثم يد الطبيعة فوقنا".

ومن وجهة النظر الإسلامية لا تقلّ هذه النظرية سوءا عن سابقتها في إنكار القدرة الإلهية، واستبدال البيئة أو الطبيعة بها. ومثل هذا النمط من "النظريات المريضة" يعدّ امتدادا لنظرية التطور التي يتمسك بها الباحثون الغربيون ويستميتون في الدفاع عنها؛ لأن البديل هو الإيمان بالخالق جل وعلا.

(ج) نظرية التأثير المتبادل (النظرية التوافقية):

إذا تفحصنا آراء أصحاب النظريتين السابقتين فإننا نجد أن كلًا منهما يغالي في رأيه، فالأولى ترى أن الإنسان هو سيد البيئة، بل يتبجح أصحابها زاعمين أنه منشؤها. والثانية ترى أن الإنسان وليد الظروف البيئية. لذلك وُضِعت نظرية ثالثة لتواجه الصراع بين أصحاب النظريتين، وهي نظرية التأثير المتبادل (النظرية التوافقية).

ويرى مؤيدو النظرية التوافقية أنه توجد تأثيرات متبادلة بين الإنسان وبيئته. فالكائنات الحية تتأثر بالكثير من مكونات البيئة تأثرًا كبيرًا. وفي الوقت نفسه تتأثر البيئة بالكائنات الحية الموجودة فيها، وهذا من شأنه أن يجعل تأثر البيئة -تقدمًا أو تأخرًا- أمرا ممكن الحدوث حسب توافر الإمكانيات، وتقدّم الإنسان نفسه في النواحي العلمية أو الثقافية أو الاجتماعية. ففي بعض البيئات التي يصعب العيش فيها يمكن أن يكون تأثير الإنسان فيها تأثيرًا كبيرًا إذا توافرت لديه الإمكانيات، وكان على درجة من العلم والمعرفة، في حين لا يمكن للإنسان الموجود في البيئات الفقيرة أن يغير من بيئته إلا بقدر محدود. ومثال ذلك الجبال، ففي البلاد المتقدمة لم تقف الطبيعة حائلا أمام الإنسان، فقام بشق الأنفاق في الجبال وتشييد الطرق السريعة الملتوية التي تتلاءم مع الطبيعة الجبلية للأرض، كما أقام المزارع الخضراء بطريقة المدرجات التي تناسب هذه الطبيعة. أما في الدول الفقيرة، فقد وقفت الطبيعة الجبلية حائلا أمام أي تقدم للإنسان يحرزه في هذا الشأن. كما يرى أنصار هذه النظرية أن هناك الكثير مما يؤكد صحتها، فهي تطابق الواقع، ففي بعض البيئات تعاظم دور الإنسان في مواجهة التحديات البيئية، وفي بيئات أخرى تغلبت الطبيعة عليه، ووضعت أمامه العديد من العراقيل والمعوّقات[1].

ويلاحظ أن هذه النظرية تكاد تكون قريبة من التصور الإسلامي للعلاقة التي يجب أن تحكم ارتباط الإنسان ببيئته، لولا أنها أهملت ذكر دور المشيئة والقدرة الإلهية في التأثير في هذه العلاقة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦). وكم من أمم قديمة ظنت أنها سيطرت على الأرض ولكنها عتت عن أمر ربها فدمرها الله تدميرا، أي أن فساد الإنسان أدى إلى معاقبته بتدمير بيئته. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩).

ثانيًا: مفهوم البيئة في الإسلام:

هناك من ينظر للبيئة على أنها مستودع أو مخزن للموارد الطبيعية والبشرية. وهناك من ينظر للبيئة نظرة جمالية على أساس أنها مصدر للمتنزهات والرياض ومناطق الترفيه (أو للخضرة والماء

---

(١) د. ضاري ناصر العجمي وعبد المنعم مصطفى، الإنسان وقضايا البيئة، صفحة ٨: ١١.

والوجه الحسن، على حد تعبير الأقدمين). وهناك من ينظر إلى البيئة من حيث تأثيرها في الكائن الحي. وهناك من يهتم بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية للبيئة، من حيث كون البيئة مصدرا لعناصر الإنتاج، ووسيلة لتلبية الرغبات البشرية وإشباعها[1].

أما نظرة الإسلام إلى البيئة فهي نظرة أشمل وأوسع وأفضل، وهي نظرة لا تتوقف عند النواحي الجمالية أو الاقتصادية للبيئة أو عند آثارها الاجتماعية والأنثروبولوجية، بل تتعدى ذلك إلى آفاق أوسع تمتد زمانيًا ومكانيًا وعقديا أيضا. وهي نظرة تتسم بوسطيتها، إذ تمزج الجوانب المادية للبيئة بالجوانب الروحية التي تربط الإنسان بالخالق، وتجعل من حماية العناصر الحية في البيئة وسيلة من وسائل العمل الصالح الذي يتقرب به العبد إلى مولاه، كما تجعل من الإسراف في استنزاف المواد غير الحية لونا من ألوان البغي والعدوان والفساد في الأرض.

ووفقا لمنهج الوسطية البيئية يمكن تلخيص مفهوم البيئة في الإسلام فيما يلي:

١- إن مفهوم البيئة بوجه عام يشمل كلا من السماوات والأرض وما بينهما، وما فيهما، فهي ليست محدودة بالهواء والماء والتربة أو بكوكب الأرض وحده، بل تشمل الكون كله بجميع عوالمه (أي بما فيه من ملائكة وإنس وجان ودواب وجماد). وهي بيئة مسخرة للإنسان وفق ضوابط شرعية تحدد حقوق الإنسان وواجباته تجاه خالق البيئة، ثم تجاه أقرانه وتجاه البيئة نفسها، وتحول ضد طغيانه وإفساده فيها، ودون إفراطه أو تفريطه فيما هو طوع يديه من أحيائها وثرواتها ومواردها.

٢- إن الإنسان (من بين سائر المخلوقات التي تعجّ بها البيئة) هو أهم عناصر البيئة، ولذلك كرمه الله دون تحديد لعقيدته، وجعل باقي عناصر البيئة منحة مبذولة له، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

٣- إن الله خالق الكون كله، ومنظمه، ومدبر أموره وأمور مخلوقاته، بما في ذلك

---

(١) محمد عبد القادر الفقي، البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث-رؤية إسلامية، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٩٣٢ م، صفحة ١٩.

البيئة[١]. وعلماء المسلمين يسلّمون بذلك، ويؤمنون بأن الله وحده هو الذي وضع النواميس التي تكفل حفظ التوازن البيئي بحيث تظل الأرض موطنا صالحا للحياة. وهذه البيئة مدعاة للتفكير في خالقها، ودليل ساطع على وجوده وكماله، وعلى قدرته على البعث. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

٤- إن كل ما أوجده الله في البيئة خُلِق بمقادير محددة، وصفات معينة، بحيث تكفل للبيئة القدرة على توفير سبل الحياة الملائمة للإنسان وغيره من الأحياء الأخرى التي تشاركه الحياة على الأرض. قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣). وقال سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢)[٢].

٥- إن كل ما في بيئة الأرض قد هيأه الخالق لكل الناس لا لبعضهم. فالأصل في المعيشة والرزق والمتاع أن يكون كل ذلك للناس كافة. قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (الرحمن: ١٠). وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ (غافر: ٦٤). وقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ (طه: ٥٣): ٥٤. ويصرح القرآن الكريم في هذه الآيات بأن الأرض وضعها الله للأنام، وجعلها محل قرار ومهدا وبساطا، فتعم الناس جميعا. ويلاحظ ورود (لكم) الخطابية العامة في الآيات السابقة (باستثناء الآية التي تفيد بأن الأرض موضوعة للأنام، أي لكل

---

(١) تختلف الرؤية الإسلامية مع ما يردده علماء البيئة في الغرب، ومن سار على دربهم من أهل الشرق، من أن البيئة قد نجمت من تطور الأرض، على النحو الذي يردده الداروانيون الذين استبدلوا بالله الطبيعة، ونسبوا إليها كل أمور الخلق والموت والحياة والتأثير والتأثر. فالبيئة، في نظر الإسلام، شأنها شأن الكون كله، تعد خلقا من خلق الله، لا تخرج عن سلطانه، ولا تملك لنفسها ولا لمن فيها نفعا ولا ضرا، بل نفعها وضرها هو من تدبيره سبحانه وتعالى.

(٢) لعله من العجيب أن نعلم أن الأكسيجين الموجود في الهواء الجوي الآن، والضروري لتنفس كل الأحياء التي على الأرض يكفي لآلاف السنين حتى ولو لم تقم النباتات بتجديده. وهذا عطاء من الله ممدود (وقد يكون غير محدود أيضا). فالإنسان لا يستطيع أن يعيش دون توافر هذا المدد، ولذلك فهو لا يباع ولا يشترى، ولا يتحكم فيه أحد. انظر: د. كمال الدين حسن البتانوني، التنوع البيولوجي (٥)، مجلة البيئة (الكويت)، سبتمبر ١٩٩٣م، صفحة ٧. ويلاحظ أنه رغم كثرة المتغيرات التي تؤثر في أكسيجين الهواء، إلا أن مقداره ثابت لا يتأثر بتضاعف عدد البشر والأحياء الأخرى ولا بتعدد الأنشطة الصناعية والزراعية التي تستهلك كميات كبيرة منه. فثمة ميزان إلهي يضبط نسبته فلا يزيد ولا ينقص.

البشر). ويعلق ابن عباس (رضي الله عنهما) على الآية العاشرة من سورة الرحمن بقوله: "جعلها (أي: الأرض) وقفا على عباده، لا على بعض عباده"[١]. والهدف من هذا التعميم هو أن يتمتع كل البشر بما في البيئة من خيرات ونعم، وأن يقضوا مآربهم المختلفة بها، ويستفيدوا من مياهها وأكلائها ومناجمها وجبالها وأوديتها...إلخ فيصلوا بذلك إلى رشدهم المادي والروحي، ويبرزوا ما جُعل فيهم من مواهب واستعدادات، ويستعينوا بذلك كله في تأمين حياة إنسانية سليمة تحدوهم إلى الفضيلة والحق، وتأخذ بأيديهم إلى سلوك سبيل الله وتحصيل رضاه تعالى. وقد فطن الجاحظ إلى ذلك، فقال: "ولم يسخر (الله) لهم جميع خلقه إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق (أي: الانتفاع) بجميع خلقه، وجعل الحاجة حاجتين، إحداهما قوام وقوت، والأخرى لذة وإمتاع، وازدياد في الآلة"[٢].

٦- إن الإنسان مطالب بأن يتعامل مع البيئة من منطلق أنها ملكية عامة، يشترك الناس جميعا في الاستفادة من مواردها، ولا يختص بها واحد من البشر دون سواه، بل لجميع الخلق حق الانتفاع بها بأي وجه من وجوه الانتفاع. ولهذا يجب المحافظة عليها حتى يأتي أمر الله. قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥). وعدم الإفساد في الأرض هو جوهر المحافظة على البيئة وحمايتها من كل ما يضرها ويضر الإنسان نفسه.

٧- إن علاقة الإنسان بالبيئة لها صور وأشكال متعددة، أفضلها هي إبقاؤها على ما جعلها الله له من كونها للأنام كافة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٧٤).

ويعني عدم الفساد في البيئة أن يحافظ الإنسان على النواميس التي وضعها الخالق عزّ وجلّ، لحفظ التوازن البيئي. ولا يتنافى ذلك مع استفادة الإنسان من ثروات البيئة ومقدراتها، وتَمَلُّك الإنسان لقطعة من بيئة الأرض، ولكن يشترط لذلك أن يعمل الإنسان في الأرض ويعمرها. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠). وقال تعالى أيضًا:

---

(١) د. عبد العزيز الحميدي، تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة، سلسلة من التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، بدون تاريخ، الجزء الثاني، صفحة ٨٥٥: ٨٥٦.

(٢) عبد السلام محمد هارون، تهذيب الحيوان للجاحظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، صفحة ٦: ٧.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠).

ومن المعروف أن ملكية الناس وإن كانت مصونة في الإسلام إلا أنها محدودة كمًّا وكيفا، وأن الامتلاك الدائم لله. قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٤). وقال عز وجل أيضًا: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (الزخرف: ٨٥).

٨- إن الملكية المطلقة لكل مكونات البيئة وعناصرها وأحيائها هي حق لله عز وجل. ولهذا فإن كل ما يوضع في متناول يد الإنسان يكون على سبيل العارية. وتبقى العارية مسخرة لكل فرد، توفر له ما يحتاج إليه من أسباب الرزق وتمنحه مكانا يأمن فيه غوائل الأيام وتستجيب لكل مطالبه. فحق الانتفاع بموارد البيئة وثرواتها محدود بقدرة الإنسان على هذا الانتفاع، ولكنه في الوقت نفسه مشروط بشروط صاحب الملك الحقيقي الذي هو الخالق عز وجل. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦). فقوله عز وجل: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يحمل إشارة إلى أن كل ما في بيئة الأرض من مسخرات للإنسان هو عارية تعود إلى صاحبها الحقيقي (الخالق جل وعلا) عندما يخرج المنتفع بها من الدنيا بوفاته.

٩- يمكن القول إن البيئة في المنظور الإسلامي لها ثلاثة جوانب: مكاني وزماني وأحيائي. ويتناول الجانب المكاني: سطح الأرض (التربة) والهواء والماء. أما الجانب الزماني فإنه يتناول تاريخ البيئات المكانية والأحيائية القديمة، موضحا وقائع ذلك التاريخ (مثل الطوفان الذي تعرض له قوم نوح عليه السلام، وعذاب يوم الظلة الذي نزل بقوم لوط عليه السلام، وإرسال الطير الأبابيل على جيش أبرهة)، ومبينا العبر التي يجب استخلاصها من ذلك التاريخ والعظات التي ينبغي أن نعيها. ويتناول الجانب الأحيائي دراسة ما على كوكب الأرض من أحياء، ومعرفة ما يحدث لها من ظواهر، وما بينها من تأثيرات، وعلاقتها بالبيئات المكانية، والمخاطر التي تكتنفها وأسبابها. وحماية البيئة ليست مرتبطة فقط بحماية جانبها المكاني أو حماية ما بها من أحياء، أو الوعي بتاريخ البيئات القديمة وأحوالها، بل إنها ترتبط ارتباطا وثيقا بجميع هذه الجوانب. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠). وقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ (محمد: ١٠).

١٠- إن حماية البيئة لا تقتصر على منع تلوث الهواء والماء والتربة، أو منع القتل الجماعي لأجناس معينة من الأحياء، بل تقوم أيضا على استقراء التجارب التاريخية وفهم أسباب تدمير البيئات القديمة. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧). وقال عز وجل: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص: ٥٨). وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٠). والذين يقومون بتدمير البيئة حاليًا ما كانوا ليقدموا على ذلك لو أنهم وعوا مصائر الأقوام الذين أفسدوا في الأرض وتجاهلوا حق الله في أنفسهم وفيما حولهم. ولكنهم لم يدركوا أن كل ما سُخِّر لهم في هذه البيئة هو عارية مستردة، وأن الخالق عز وجل هو المالك الحقيقي لهذه العارية، وأن حسن التصرف بها هو شرط استمرارها موطن أمن وسلامة.

ثالثًا: مكانة الإنسان في البيئة وحمايته في الإسلام:

في حين يغالي البيئيون المعاصرون في الدفاع عن حقوق الحيوان، ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها إذا قام أحد الصيادين -مثلًا- بقتل وحيد قرن أو فيل أفريقي أو نمر هندي، ويملأون العالم ضجيجا إذا حدث تلوث نفطي في أحد البحار ينجم عنه موت غربان البحر أو السلاحف البحرية، نجد أن أغلبية هؤلاء البيئيين لا يحركون ساكنا عند قيام إحدى الدول بقتل المسلمين أو ذبحهم أو الاعتداء على المدنيين في فلسطين أو غيرها، وهو لون من السلوك نعدّه تطرفا لا يمكن أن نفسره إلا بالنظرة الدونية لهؤلاء تجاه غيرهم من البشر، وإعلائهم لقدر الحيوان بشكل مبالغ فيه. والإسلام يحث على الرفق بالحيوان، ولكنه لا يعلي قدره على البشر. ووفقا لمنهج الوسطية البيئية الإسلامي، فإن الإنسان هو أهم عنصر من عناصر البيئة، بل إن البيئة نفسها مسخرة لخدمته. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠). وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (الحج: ٦٥). وقال أيضًا: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٤). وقد فضل الله الإنسان فجعله خليفة في الأرض دون غيره من سائر الأحياء، ومتعه بقدرات ونعم لا يتمتع بها غيره من المخلوقات حتى عالم الملائكة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠). لذلك حرصت الشريعة الإسلامية على حماية الإنسان وتوفير الأمن له، فنصّت على أن المسلم لا يتعمد قتل إنسان ظلما وعدوانا. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١). ومن

يقترف مثل هذه الجريمة يعد في نظر الإسلام من أكبر المنتهكين لحرمات الله، والخارجين على حدوده، وجزاؤه نار جهنم خالدا فيها. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٩٣).

وحثت الشريعة الإسلامية على إطعام الجائع. قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الدهر: ٨-٩).

رابعًا: التوازن البيئي:

وفقا لمنظور الوسطية البيئية فإن الكون الذي نعيش فيه يخضع لدورة حيوية تتسم بالدقة والتوازن. والحياة مستمرة بمشيئة الله في عالمنا من خلال سلسلة من عملية التشكل والتحولات في أشكال الطاقة المختلفة التي تنتمي أساسًا إلى الشمس[1]، ذلك النجم الذي خلقه الباري عز وجل وسخره لنا ليضيء لنا الأرض، ويمد النباتات بإشعاعاته التي تساعد على نموها وإزهارها. وتخضع كل هذه العمليات إلى نظام بالغ الدقة والتوازن. كما أن عناصر هذا الكون قد وجدت بتقدير محكم، وهي تنتظم في حركتها، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار. ويكثر في القرآن الكريم ذكر هذه التقديرات والكميات. قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر: ١٩). وقال عز وجل: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨). وقال سبحانه: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن: ٥). وقال تبارك اسمه: ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (المزمل: ٢٠). وقال أيضًا: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢٠).

وتصريح القرآن بتعميم التقدير على كل آحاد الكون يغني عن التفصيل. فلا شيء يشذّ عن هذا التقدير حتى الورقة تسقط من شجرها، وهو أمر جدير بأن يلفت انتباه الإنسان فيسخر طاقاته العلمية كلها لتعميق معرفته وكشف خصائص الأشياء[2] المحيطة به في بيئته. ولعل أهم ما تتصف به البيئة الطبيعية، التي استخلفنا الله فيها، هو ذلك التوازن الدقيق بين عناصرها المختلفة. فلو أن ظروفا ما أدت إلى إحداث تغيير من نوع ما في أحد مكونات هذه البيئة فإنه بعد فترة قليلة سوف

---

(١) د. محمد عبدو العودات ود.عبد الله يحيى باصهي، التلوث وحماية البيئة، عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، صفحة ٦.

(٢) د. محمد أمزيان، أصول المنهج المعرفي من القرآن والسنة، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٨٧، صفحة ١٠٢.

تقوم السنن الطبيعية التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في البيئة بإحداث بعض الظروف التي تؤدي إلى تلافي آثار هذا التغيير. ومن أمثلة ذلك أن النار إذا دمرت جزءا من إحدى الغابات، فإنه بعد أعوام قليلة سوف تعود الأرض التي احترقت أشجارها إلى طبيعتها الأولى، فتنمو بها الحشائش والأعشاب، ثم سرعان ما تكتسي بالأشجار الباسقة مرة أخرى(١).

إن كل ما في البيئة من حولنا قد خلق بقدر: الهواء والماء وحرارة سطح الأرض المناسبة للأحياء، والجبال الرواسي، والتربة غير المتجانسة، وانتظام سرعة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، والضغط الجوي المناسب لحياة الإنسان والحيوان والنبات، والجاذبية الأرضية التي تساعد على استقرار الأجسام على سطح الأرض. يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥). ويقول أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٠).

ومعنى هذا أن البيئة دون تدخل مدمر أو مخرب من جانب الإنسان تكون متوازنة، أي تظل عناصر البيئة ومكوناتها على حالها كما خلقها الله تعالى دون تغير جوهري يذكر(٢).

ومن أجل المحافظة على البيئة، فإن على الإنسان أن يلمّ بكيفية عمل الأنظمة البيئية. وعلى

---

(١) د. أحمد مدحت إسلام، التلوث مشكلة العصر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس ١٩٩٠، صفحة ٩.

(٢) د. زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان: رؤية إسلامية، مرجع سابق، صفحة ٢٨: ٢٩. وأقول: من المؤسف أن نجد بعض الأدبيات العلمية المعنية بالدراسات البيئية ترجع حدوث التوازن البيئي إلى ما يعرف بفرضية جايا Gaia hypothesis. وتقوم هذه الفرضية على فكرة مفادها أن الأرض كائن عضوي حي خارق، تتفاعل فيه الكائنات الحية مع العمليات الفيزيائية- الكيميائية بدون توقف، فيوجد هذا الكائن لنفسه بيئة على مقاسه، ومن ثم يتحكم في تركيب التربة والغلاف الجوي للأرض وفقاً لرغباته. ووفقاً لهذه الفرضية فإن الأرض قادرة على تجاوز المشكلات البيئية التي تهدد الحياة فيها، مثل: التصحر والتلوث وانقراض أنواع كبيرة من الأحياء. وهي قادرة على تصحيح أي خلل يحدث في توازن مكوناتها وأحيائها وحرارتها.ومن المؤسف حقاً أن تنسب هذه الفرضية تلك القدرة إلى الأرض نفسها، لا إلى الخالق جل وعلا. انظر تفاصيل نظرية جايا في: ج. إي. لفلوك، جايا: نظرة جديدة على الأرض، ترجمة: د. عادل أحمد جرار، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٣ م، صفحة ٨ وما بعدها.

الإنسان أن يعلم أن الله أبدع كل شيء خلقه، والإبداع يعني أن كل شيء خلق بقدر، وخُلِق لأداء وظيفته بالشكل الأمثل والأكمل. وما كان لبشر أن يغير خلق الله فيأتي بشيء أفضل مما خلق المولى عز وجل. وعلى هذا فإن "إزالة غابة مثلا (وهي نظام بيئي معقد) لزراعة محصول واحد من القمح أو نوع معين من الأشجار ذات القيمة الاقتصادية يعد مخاطرة كبيرة، إذ إن هذا الصنف أو النوع سيكون أكثر تعرضا للأمراض والتغيرات المناخية المختلفة التي قد تؤدي إلى هلاكه وتتسبب في هدم النظام البيئي. ومن هنا نرى الأهمية الكبيرة لاستغلال النظم البيئية استغلالا علميا رشيدا، والحفاظ على التنوع الكبير للكائنات الحية ضمن النظم البيئية المختلفة، وكذلك المحافظة على تنوع النظم البيئية"(١).

خامساً: التلوث البيئي:

تقف مشكلة تلوث البيئة أو تلويثها في طليعة المشكلات البيئية التي تهدد حياة الإنسان على الأرض، وفي الوقت نفسه تلحق الضرر والفساد بكل ما يحيط به من ماء وهواء وتربة وأحياء ومنشآت.

ويعرّف التلوث البيئي بأنه: "أي تغير نوعي أو كمي في المكونات البيئية الأحيائية منها وغير الأحيائية، على أن يكون هذا التغير خارج مجال التذبذبات الطبيعية لأي من هذه المكونات، مما يؤدي ذلك إلى حدوث اختلال في اتزان الطبيعة، وهو الأمر الذي يتسبب في حدوث تأثيرات مباشرة أو غير مباشرة على النظام البيئي(٢).

كما يعرف بأنه: "هو التغير في الخواص الطبيعية والكيميائية والحيوية (البيولوجية) المحيطة بالإنسان (هواء، ماء، تربة)، ذلك التغير الذي قد يسبب أضرارا لحياة الإنسان أو غيره من الكائنات الحية الأخرى، حيوانية أو نباتية أو بحرية، أو يسبب تلفا في العمليات الصناعية واضطرابا في الظروف المعيشية بوجه عام، وإتلاف التراث والأصول الثقافية ذات القيمة الثمينة مثل المباني والمنشآت الأثرية كالمتاحف وغيرها"(٣).

---

(١) د. محمد عبدو العودات ود. عبد الله يحي باصهي، التلوث وحماية البيئة، مرجع سابق، صفحة ٩: ١٠.

(٢) د. إحسان علي محاسنة، البيئة والصحة العامة، مرجع سابق، صفحة ٥٦.

(٣) د. ممدوح حامد عطية، إنهم يقتلون البيئة، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧ م، صفحة ١٩.

وتتعدد صور التلوث في البيئة من حولنا: فالمواد الكيميائية الخطرة تتسرب إلى المياه فتهلك ما فيها من أسماك وتجعلها غير صالحة للحياة. والغازات الضارة تندفع إلى عنان السماء فتجعل الهواء خانقا وخطرا على كل ما يطير فيه وكل من يتنفسه. والأصوات المزعجة التي تنطلق هنا وهناك تقلق راحة البشر وتثير الأعصاب. والمعادن السامة من كادميوم وزئبق ورصاص وغيرها تتساقط على التربة أو تدفن فيها فتهلك الحرث والنسل. والأدخنة السوداء تشوه المنشآت والمباني وتفقدها جمالها ورونقها. والأمهات يرضعن أولادهن في بعض البلدان حليبا قاتلا، وقد يلدن أجنة مشوهة بسبب تراكم العناصر السامة في أجسامهن. والتلوث قديم قدم الحياة على الأرض، ولكن الأرض في الأزمنة القديمة كانت قادرة على معالجة نفسها بنفسها وتنقية أجوائها ومياهها وتربتها من الملوثات التي كانت الأرض هي مصدرها (كما في انبعاث غازات البراكين، والإشعاعات الطبيعية). لقد كانت الأرض قادرة على استيعاب الملوثات الطبيعية "وتحييد" آثارها، بل إن بعض المواد التي كانت تنطلق، وما تزال، من البراكين ذات آثار محمودة. فهي تخصب التربة وتجدد نشاطها، كما هي الحال في الرماد البركاني الذي يضيف إلى الأرض عناصر مغذية يستفيد منها النبات في نموه وفي إنتاج ثماره.

ووفقا لمنهج الوسطية البيئية الإسلامي، فإن التلوث البيئي يعد لونا من ألوان الفساد؛ لأنه يؤدي إلى إخلال بالميزان الذي نهانا الإسلام عن أن نطغى فيه، فقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ (الرحمن: ٥-٩). وكلمة (الفساد) التي وردت في القرآن الكريم أعم من كلمة التلوث التي تستخدم في الأدبيات البيئية. وقد ذكر مفسرو القرآن الكريم عدة معان لكلمة (الفساد) عند شرحهم للآية الكريمة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)، فقد ذكروا أن المراد بالفساد في الآية هو: ارتكاب

المعاصي، أو الجور والظلم أو قلة الغيث، وتأثير ذلك في النباتات والأحياء[١]. ومع ذلك، فإن دلالات لفظة الفساد تتسع لتعبر أيضا عن التلوث الذي يحدثه الإنسان في البيئة. وتوضح الآية الكريمة آثار ذلك الفساد في الإنسان وفي البر والبحر.

وفي الدراسات البيئية المعاصرة (التي تنطلق من رؤى غير دينية) يقسم الباحثون التلوث إلى قسمين رئيسين:

١- تلوث مادي (يشمل تلوث كل من الهواء والماء والتربة).

٢- تلوث غير مادي (مثل الضوضاء والحرارة العالية، والتلوث البصري).

ولا يشير هؤلاء الباحثون من قريب أو بعيد إلى التلوث الخُلُقي، وهو في الواقع مصدر كل الشرور البيئية.

وما من شك في أن التلوث يمثل عدوانا على الأحياء كافة، بمختلف أنواعها. وبناء على

---

(١) قال القرطبي: "قوله تعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر) اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر، فقال قتادة: الفساد: الشرك وهو أعظم الفساد. وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: فساد البر قتل ابن آدم أخاه: قابيل قتل هابيل، وفي البحر بالملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً. وقيل الفساد: القحط وقلة النبات وذهاب البركة. ونحوه قال ابن عباس، قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا. قال النحاس: وهو أحسن ما قيل في الآية. وعنه أيضا: أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم. وقال عطية: فإذا قل المطر قل الغوص عنده، وأخفق الصيادون وعميت دواب البحر... وقيل الفساد: كساد الأسعار وقلة المعاش، وقيل الفساد: المعاصي وقطع السبيل والظلم، أي صار هذا العمل مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات. والمعنى كله متقارب. والبر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس، لا ما قاله بعض العباد: إن البر اللسان والبحر القلب، قاله عكرمة. والعرب تسمي الأمصار: البحار. وقال قتادة: البر أهل العمود، والبحر أهل القرى والريف. وقال ابن عباس: إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر. وقاله مجاهد، قال: أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهي بحر. وقال معناه النحاس، قال: في معناه قولان: أحدهما ظهر الجدب في البر أي في البوادي وقراها، وفي البحر أي في مدن البحر، مثل: واسأل القرية، أي ظهر قلة الغيث وغلاء السعر- (بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض) - أي: عقاب بعض- (الذي عملوا) ثم حذف، والقول الآخر: أي ظهرت المعاصي من قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأول مجاز إلا أنه على الجواب الثاني، فيكون في الكلام حذف واختصار دل عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرت المعاصي في البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى سعرهم، ليذيقهم عقاب بعض الذي عملوا، (لعلهم يرجعون) - لعلهم يتوبون". انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المجلد السابع، مرجع سابق، الجزء ١٤، صفحة ٢٨.

ذلك، يجب على الجهات المسؤولة عن حماية البيئة في المجتمعات المختلفة، وفي مقدمتها المجتمعات الإسلامية، أن تتعامل مع مشكلة التلوث باعتبار أنه ضرر يحيق بالمجتمع لا جدال فيه.

والموقف الإسلامي من مشكلة التلوث يخالف الموقف الذي تتبناه حاليا المنظمات الدولية المعنية بالبيئة والدول الصناعية والذي يتلخص في ضرورة مشاركة دول العالم جميعا في مكافحة التلوث بحجة أن الملوثات لا تعرف حدودا جغرافية أو سياسية حيث تسهم الرياح والتيارات المائية في نقلها من مكان إلى آخر. صحيح أن الإسلام يحث على التعاون في دفع الضرر، ولكن هذا لا يتعارض مع وجوب أن يتحمل المتسبب في الضرر نتائج عمله، وبلغة العصر فإن (الملوث يدفع)، أي أن الذي يكون سببا في ابتعاث الملوثات يتحمل تكاليف المعالجة، ويتحمل أيضا تعويض المتضررين.

الخاتمة

إن مراجعة مناهج علوم البيئة في جامعاتنا العربية والإسلامية يجد أنها تتناقى مع كثير من معتقداتنا الإسلامية. وقد بذلت بعض المحاولات لأسلمة هذه المناهج، ولكنها ما تزال -برغم ذلك- تمتح من معين الفكر الغربي، وتتلوث بما فيه من نظريات ومناهج تخالف عقيدة التوحيد، حيث ترد كل ما في البيئة من أحياء وظواهر إلى الطبيعة ذاتها وإلى الصدفة وإلى التدخل البشري، وتنكر دور القدرة الإلهية في الخلق والتغيير.

ومن استقراء المصادر الإسلامية يجد الباحث أنها وضعت قواعد وقيما عظمى لحماية البيئة، وأنها حثت على تحقيق التنمية المتكاملة بمختلف صورها، وعملت على حماية المخلوقات التي تعيش على الأرض والإحسان إليها، بما في ذلك حماية الإنسان من شرور نفسه ومن ظلم أخيه الإنسان، مع الاستفادة مما في الأرض من موارد ومقدرات وفق ضوابط خاصة من غير إفراط ولا تفريط، في إطار الوسطية العامة التي اتسمت بها شريعة الإسلام. ولم تقتصر الشريعة الإسلامية في هذا المجال على تحديد أساليب الثواب للمحسنين للبيئة والعقاب للمسيئين لها، بل تعدّت ذلك إلى جعل أخلاقيات التعامل مع البيئة سلوكا حميدا يلتزم به المسلم ويراقب في أدائه ربه.

وبناء على هذا، فإن طبيعة القضايا البيئية المستجدة تقتضي منا، نحن معشر المسلمين، أن نتبنى أسس المعالجة الشرعية لها باتباع منهج الوسطية، بحيث نكون قدوة لغيرنا في ذلك؛ حتى نحافظ على الكوكب الذي نعيش فيه ونتركه سالما لأبنائنا والأجيال القادمة.

وكم هو جميل أن نعرف غيرنا بأسس الوسطية البيئية انطلاقا من تعاليم ديننا الحنيف، وأن نعلم أبناءنا أيضا هذه الأسس، ونعرفهم بأن المقصد العام لرعاية البيئة والمحافظة عليها في الإسلام هو توفير الحياة الآمنة للإنسان، وحماية مصالحه الاقتصادية، وتوفير حاجاته المعيشية وغيرها، وحماية سائر الأحياء والمخلوقات الأخرى التي هي مسخرة لخدمته.

أهم التوصيات:

١- ضرورة التأصيل للوسطية البيئية استنادا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وما ورد في كتب الفقه الإسلامي.

٢- إعادة قراءة المصادر الإسلامية من منظور عصري لاستخلاص المبادئ والأفكار التي تفيد في حل قضايا التنمية المستدامة المعاصرة والمحافظة على البيئة وثرواتها وفق منهج الوسطية الإسلامية،

وضرورة ترجمة هذه المبادئ إلى اللغات الأخرى لتعريف غير المسلمين بالدور العظيم لنبي الإسلام (ﷺ) وللمسلمين الأوائل في هذا الموضوع، وكيف أنهم كان رحماء بالبيئة محسنين لها، على النقيض من أولئك الزعماء الذين يتشدقون الآن ببرامجهم البيئية وفي الوقت نفسه لا يتورعون عن تدمير البيئة باستخدام أسلحة الدمار الشامل في حروبهم.

٣- يجب دراسة قضايا البيئة من منظور إسلامي، وتعريف الآخرين بذلك، نظرا لأهمية ذلك في التصدي للمشكلات البيئية التي يعاني منها العالم حاليًا.

٤- التأكيد على أهمية التعاون بين الباحثين الشرعيين والبيئيين لمعالجة القضايا البيئية.

٥- تضمين مناهج التعليم في المراحل التعليمية المختلفة منهج الإسلام في حل قضايا التنمية والتعامل مع البيئة والمحافظة عليها، ووضع الحلول لمشكلاتها وفق الشريعة الإسلامية.

٦- دعوة المفكرين والفقهاء والباحثين وخبراء البيئة إلى التعاون فيما بينهم لعرض الرؤية الإسلامية الشاملة لقضايا البيئة وسبل حلها في دول العالم الإسلامي، والعمل على تصحيح المسار وبيان مواطن الخلل كلما أتيحت لهم الفرصة في المحافل العلمية والفكرية.

وبالله التوفيق.